

معركة بين دينين

دين اليهود ودين النصارى

وقالت اليهود : عزيزُ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله .
ذلك قولهمُ بأفواههم ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ
الله ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ .
وَاتَّخَذُوا الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ رَبًّا مِنْ دُونِ اللهِ .
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ ، عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و بنو إسرائيل ؛ يَمِدُّهُمْ الرَّجْرَجُ ، وَأَخْلَاقُهُمُ الْمَتَاعَةُ يَخَافُونَ ، وَلَا يَسْتَحُونَ
فَإِذَا مَسَّهُمُ الضَّرُّ ، دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ، فَإِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْهُمْ ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ
بِرَبِّهِمْ يَشْرِكُونَ .

وهذا شأنهم مع موسى ، ومع هرون ، ومع زكريا ويحيى .
وهكذا كان شأنهم مع الأنبياء الذين أرسلوا فيهم : أرميا ، وشعيا ومن بعدهم .
كانوا يكفرون بهم ، ويهزمون برسالاتهم ، وَلَا يُلْقُونَ بِالْإِلَهِ إِلَى تَحْذِيرِهِمْ
وإنذارهم ، وَلَا يَخَافُونَ أَن يَأْخُذَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ .

وَيُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَلُوكَ بَابِلَ ، وَسُنْحَارِيبَ ، وَبُخْتَنْصَرَ ، فَيَذَهُمُونَهُمْ ،
وَيُوقِعُونَ بِهِمُ الْعَذَابَ ، وَالْخَرَابَ وَالْدمَارَ ، فَيَخْرِبُونَ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ ، وَيَذْكُونَ
مَعَابِدَهُمْ ، وَيَدْمُرُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسَ ، مَعْبَدَهُمْ وَمَبْكَاهَهُمْ .

فَإِذَا مَا ظَهَرَتِ النَّصْرَانِيَّةُ ، وَفِيهَا تَصْدِيقُ لِكِتَابِهِمْ ، وَتَبْيَانٌ لِمَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ
وَهُدًى وَنُورٌ ، وَحِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ ، وَتَحْلِيلٌ لِمَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، نَرَاهُمْ يَصْدُونَ عَنْهَا ،
وَيَسْتَكْبِرُونَ وَيَقَاوِمُونَ الْمَسِيحِيَّةَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ ، وَيَسْتُونُ عَلَيْهَا حَرْبًا
طَاحِنَةً مُبِيدَةً .

فَذُو نُوَاسٍ ، مَلِكُ الْيَمَنِ ، يَكَادُ يُضْعَقُ حِينَ يَسْمَعُ خَبَرَ نَصَارَى نَجْرَانَ
وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَتَسَّعُ لِدِينِهِ وَدِينِهِمْ ، وَلَا لِحَيَاتِهِ وَحَيَاتِهِمْ ، فَيَهْبُ عَلَيْهِمْ
كَعَوَاصِفِ الْمَوْتِ ، وَلَا يَكْفِيهِ أَنْ يَقْتُلَ أَوْ يَشْتَقِ ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّعْذِيبُ وَالتَّمْثِيلُ ،
وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَحْفَرَ الْأَخْدُودَ فِي الْأَرْضِ ، وَيُسْعَّرُ فِيهَا النَّارَ ، لِيَشْوَى هَؤُلَاءِ
النَّصَارَى ، وَيَصْهَرُ أَجْسَادَهُمْ ، بِمَا تَجَرَّأَوْا عَلَى دِينِهِ دِينَ الْيَهُودِيَّةِ ، وَبِمَا صَبَّحُوا
وَاَعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ .

وَمَا كَانَ يَطْفِئُ غُلَّتَهُ ، وَيُبْرِدُ ثَوْرَتَهُ ، إِلَّا أَنْ يَجْمَعَ جَمْعَهُ وَأَعْوَانَهُ ،
لِيُطِئُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَهُمْ فِي الْأَخْدُودِ يَحْتَرِقُونَ .
قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى
مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ،
الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

وشاءت إرادة الله ، أن يقتصَّ هؤلاء النصارى من ذى نُوَاس ، فمكَّن
لبعض هؤلاء النصارى ، أن يفرُّوا إلى النجاشيِّ ملك الأحباش والنجاشيِّ
إذ ذاك ظهيرٌ للنصرانية .

فهبَّ لنجدتهم ، وانتقم لهم وأخذ بثأرهم وأخذ يكيل الضربات لذى
نُوَاس ، حتى طواه تحت قدميه ، وأدخل اليمن بين يديه .

وفي طَيِّة من طَيَّات الزمن ، تستعِرُّ الحرب بين الأديان .
لا . بل بين محترفي الأديان .

فما كان بين الأديان يوماً خلاف ، والدين لله ، وما دامت الأديان لله ،
وفي الله ، فلا يكون بينها خلاف .

وإنما جاءت يُصدِّقُ جديدها ما بين يديه من قديمها ، ويزيد عليه ،
ويفصِّل فيه ، ويوسع في تشريعه ، ويُتمُّ ما نقص ، وما يقتضيه تزايد
العمران .

وعيسى مصدقٌ لموسى ، ومحمدٌ مصدقٌ لهما .

والإنجيل يكملُ التوراة ، والقرآن متممٌ للإنجيل والتوراة .

فتنازع البقاء لم يكن بين الأديان ، وإنما كان بين المتَّجرين بالأديان .

الكعبة

ودارت الأيام ، وأصبح أبرهة ملكاً على الحبشة ، وفيها دين النصرانية .
وحارب أبرهة اليمن واستولى عليها .

وغرّه أن الحبشة بنصرانيتها ، غلبت اليمن يهوديتها ، فتملكه الغرور ،
واندفع يُوطد للنصرانية ، ويثبتُ مجدها ويُعلّي من شأنها .

ورمّزُ الأديان معابدُها ، ومن أجل ذلك يفرغ المتديّنون قصارى جهدهم
في تشييدها وتعميرها ، وهندستها وتنظيمها ، وجلب العباد إليها .

وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .

وبنى أبرهة كنيسة ، وعلى وشيّد ، وشرف ومجّد ، ولكنّ الناس
عنه وعن كنيسة منصرفون .

والناس من أطراف الجزيرة العربية ، وما حول الجزيرة ، وفي اليمن
والحبشة ، يؤثّون وجوههم شطرَ الكعبة في الحجاز ، يحجّون ويتبركون .
والكعبة إذ ذاك مريض الأضنام ، ومثوى الأوثان ، ومعقل الشّرك
والوثنية . وهذه يا قوم كنيسة النصرانية ، فما لكم لا تعرجون ، وعليها لا تقبلون !

وكان يغيظه أن أصحاب الكعبة يدلّون ويفخرون ، بأنها البيت العتيق ،

ولو كان تذكر المسيحية السمحة ، التي توصى بأن من ضربك على خدك الأيسر ، فأدر له خدك الأيمن ، ما كان هاج ولا ماج ، ولا أقام الدنيا وأقعدھا .

فأين أنت يا أبرهة ، يا حامل لواء الدين ، والغاضب للمعبد ، حين تنفخ في الصور ، وتهيج القوم ، وتجمع الجيوش ، وتسوق في مقدمتها الفيلة الشداد الغلاظ ، يتزعمهم فيلك الأبيض ؟ .
جيش جرار ، كان يمكن أن يساق للخير والتعمير ، فتسوقه لهدم بيت ؟
لهدم الكعبة ، منافسة الكنيسة ، والتي أغاظك رجلها الكنانى الأحمق من رجالها .

ووصل أبرهة بجيوشه ، حتى وقف على باب مكة ، وأرسل في طلب أصحاب البيت ، وخيرهم بين التسليم والتدمير .
فكانوا أعقل منه ، وأرشد رأيا ، وتركوا له مكة وأخلوها ، وتفرقوا في الشعاب وسفوح الجبال ، وأسلموا أمرهم لله .
وقال له شيخ سدة البيت وخدّامه الشيخ عبد المطلب :
يا أبرهة ، إنا لن نقدر عليك ، فاتجه بحربك إلى رب البيت ، ورب البيت يحميه وكان ذلك دعاء عليه ، واستعانة بالله على عدو الله .
وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ! .

ألم ترَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدَهم في تضليل ؟
وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، جماعاتٍ جماعاتٍ ، ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيل ؟
فجعلهم كعصفٍ مأكول ؟ .

ولعل المراد بالحجارة الصغيرة ، جراثيم الأمراض ، تفشت فيهم ، وفكت بهم ، فأنهكت قواهم ، وهرأت جلودهم ، وسوّست عظامهم ، وأفنتهم ، فجعلتهم رِماً وجِيفاً .

فمثلهم كمثل الزَّرع ، إذا أكلته البهائم وهضمته في كروشها ، وأخرجته رَوْثاً قدراً ، تشمزُّ منه النفوس ، وتتقرَّزُ منه العيون .

ولحكمةٍ سابقةٍ في علم الله ، أن تُدرك عناية الله البيتَ الحرام ، وتحمى الكعبة من أصحاب الفيل ، في تلك السنة المباركة ، التي ولد فيها النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، لتكون فيما بعد كعبة المسلمين ، وقبلةً في صلاتهم ، ورمزَ دينهم ، ومزارهم في حجِّهم ، ومركز دائرة اجتماعهم وتعارُفهم ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسمَ الله في أيامٍ معلومات .

محمد

ألم يجدك يتيمًا فآوى ؟ ووجدك ضالًّا فهدى ؟ ووجدك عائلًا فأغنى ؟

عَوَّضَهُ اللهُ فِي يُتَمِّهِ خَيْرًا مِمَّا فَقَدَهُ بِفَقْدِ أَبِيهِ ، فَقَدْ مَكَنَ لَهُ أَنْ يَعِيشَ فِي ظِلَالِ جَدِّهِ وَعَمِّهِ ، وَحِضَانَةِ أُمِّهِ ، ثُمَّ اسْتَوَى غَلَامًا فَتِيًّا ، يَتَاَجِرُ ، وَعَرَفَ النَّاسَ ، وَكَسَبَ ، وَتَزَوَّجَ وَخَلَّفَ وَأَصْبَحَ يُؤْوِي الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ .
وَعَوَّضَهُ عِلْمًا وَتَجْرِبَةً وَخُلُقًا ، وَرَبَّادًا فَاحْسَنَ تَرْبِيَّتَهُ ، وَمَنْحَهُ نُبُوَّةَ وَرِسَالَةٍ وَشَرِيعَةً ، وَخَتَامًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَجَعَلَهُ أَفْضَلَ الْخُلُقِ أَجْمَعِينَ .
وَعَوَّضَهُ فِي فَقْرِهِ ، فَأَغْنَاهُ عَنِ النَّاسِ ، وَبَارَكَ لَهُ فِي تِجَارَتِهِ ، وَأَغْنَاهُ بِعِزَّةِ نَفْسِهِ ، وَحَسَنِ سُمْعَتِهِ ، وَثِقَةِ النَّاسِ فِيهِ ، وَشُمُولِ دِينِهِ .

وَحِينَ كَبُرَ وَبَلَغَ السَّادَةَ مِنْ عَمَرِهِ ، أَخَذَتْهُ أُمُّهُ ، وَسَافَرَتْ بِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، لِزِيَارَةِ بَنِي النَّجَّارِ ، أَخْوَالِ أَبِيهِ ، فَهُؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنْ رَاغَةِ أَبِيهِ الَّذِي مَاتَ وَلَمْ يَرَهُ ، وَزُورَتِهِ الْبَيْتَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ، وَالْقَبْرَ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ .
وَأَقَامَتْ فِي ضِيَافَتِهِمْ مَا أَقَامَتْ ، وَاقْبَلَتْ مِنْ إِكْرَامِهِمْ مَا لَقِيَتْ .
وَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى مَكَّةَ مَرْضَتْ فِي الطَّرِيقِ ، فَمَاتَتْ ، وَدُفِنَتْ فِي نَزْلَةٍ اسْمُهَا الْأَبْوَاءُ .

فَلَمَّا دَفَنُوهَا ، وَرَدَمُوهَا عَلَيْهَا بِالتُّرَابِ ، وَانصَرَفَ النَّاسُ ، لَمْ يَبْقَ وَاقِفًا

على هذا القبر ، فى الخلاء ، وفى لبيب الشمس ، وحريق الصحراء ، إلا صبىً صغير ، سنه ست سنوات .

هو ولدها محمد ، وقف يبدل هذا القبر بدموعه ، ويرثى أمه التى كانت تعوضه عن أبيه ، فإذا هى بموتها ، تخلقه من غير أمه وأبيه . وتلفت حواليه ، فلم يجد إلا جاريته أم أيمن .

فمسح عينيه ، واسترجع نفسه ، واستجمع شجاعته ، وقال لها : الآن يا أم أيمن ، قد حرمت الأبوين ، وتعريت من الظلّين ، وأنا بين البلدين ، فإلى أين أذهب يا أم أيمن ؟ فتحدثت حبات دموعها ، وشرقت بريقها ، وتَحَشَّرَجَ صوتها ، وهى تقول : إلى أين يا محمد ؟ إلى أليك عبد المطلب ، سيد قریش ، فى ظله وحجره تعيش . وتمتم الصبى ، وقال : أبى عبد المطلب ؟ أبى ؟ لا تقولى أبى ! فإن أبى قد مات ، واليوم ، مرة ثانية مات .

قولى يا أم أيمن : جدى ، والجدُّ أبُّ أعلى ، وبينى وبينه ميدان يشرح فيه أعمامى ، وأبناء أعمامى ، وما أنا إلا واحد من هؤلاء وهؤلاء ! واستظلّ فى كنفِ جده عبد المطلب سنتين .

فلما مات عبد المطلب ، وقف محمد على قبره مع الواقفين . فلما انصرفوا ، لم يبق إلا الغلام اليتيم ، يبكى ويرثيه ، ويقطر حبات دموعه عليه ، ويقول :

لقد كنتَ أبى بعدَ أبى ، وكنتَ مُفَرِّجَ كُربى ، وماسحَ رأسى ،
ودافعَ بأسى وباعثَ أنسى ، أفُجِدَى بعدَكَ النَّاسَى !

والتفتَ إلى أم أيمن من ورائه ، وسألها :

وإلى أين يا أمَّ أيمن ؟

وكفكتُ أمَّ أيمن من دموعِها ، ومستَّ كَتِفَه بيدها ، وقالت :

إلى أين ؟ إلى أيك أبى طالبٍ يا محمد ؟

وتتمَّ الغلام ، ثم قال :

أبى ؟ أبى أبو طالب ؟ يا أمَّ أيمن . لقد مات الآباء ! واليومَ مات

أبو الآباء ! قولى : عمى أبو طالب . وعمى أبو طالبٍ ، سيِّدُ الرجال ،

وكريم الخصال ، وعليه هَيْبَةٌ وجلال ، ولكنَّه يا أمَّ أيمن : قليلُ المال

وكثيرُ العيال ، أَفْتَرِيدِينَ يا أمَّ أيمن ، أن أزيده حِمْلًا على أحمال ! !

وما أَرْضَى أن أعيشَ عِثًّا على الرجال !

وبدأ محمدٌ يحملُ نفسه ، ويعملُ لِعِيشِهِ ، ويرعى غنمَ الناس ، ليأخذ

آخرَ النهارِ أَجْرَهُ ويرْزُوهُ إلى التجارة بعينه ، ويتعلق بأبى طالبٍ فى سَفَرَةٍ

من سفراته إلى الشام ، فيتعرَّفُ الأسواقَ ، ويتمرَّسُ بالأتِّجار ، ويسير

كَتِفًا بكَتِفٍ مع الناس .

وعلى قمة صخرة هناك بالشَّام ، يقيمُ الراهبُ بحيرى ، يطل على الغادين

والراحمين . يتعبد ويقرأ في كتب الأولين ، ويفتح إنجيل برنابا ، فيتلو ما قال عيسى ، ومُبشِّرًا برسولٍ يأتي من بعدى اسمه أحمد ، إذا سار ظلَّته سَحْبُ السماء .

ويرى بحيرى ، وهو يطل من صومعته ، قافلةً آتيةً من بلاد العرب ، تتبعها غمامة في السماء ، وما كان مألوفًا في القوافل ، أن تكرّمها السماء . فدعا هؤلاء القوم إلى صومعته ، وما كان من عادته أن يدعو الناس ، وتفرّس فيهم ، حتى جلس إلى الشاب محمد يسأله ، ويقابل بين ما يرى فيه من ملامح وشواهد ، وبين ما قرأ من أوصافٍ وعلاماتٍ في الكتاب . ثم مال على عمه أبى طالب ، وهمس في أذنه : يا أبا طالب ، خذ ابنَ أخيك ، واضممه إليك ، واحذرْ عليه ، وإني لأرجو أن يكون ذا شأنٍ عظيم .

وتسامع الناس بأمانته ، وبالبركة التي تحلُّ في تجارته ، وتمنّى كثيرٌ من ذى التجارات ، أن يكون محمدٌ أمينه وسفيره . ودعته خديجة بنت خويلد ، الغنية الجميلة الجليلة ، ليتاجر في مالها ، وأرسلت معه في خدمته غلامها ، فربح لها ، وربح منها احترامها وإعجابها ، فعرضتْ عليه نفسها ، وتزوَّجها ، ولو أنه كان أصغر سنًا منها ، فكانت الزوجة والحبيبة والرفيقة ، والسند في الشدة ، والمفرّجة للكربة ، والمصدّقة يوم كذب الناس .

وكانت أول سيدة تدخل الجنة ، وكانت أمّ أولاده ، وما كان له من أخرى
غير إبراهيم ، وكانت أعزّ نساءه عليه ، وحزن لموتها حتى بدا حزنه وهزاله !

دخل الكعبة يوماً على القوم ، وقد تواعدوا على الحرب ، وغمّسوا
أيديهم في الدم ، فقال عَلامٌ يا قوم ؟ فقالوا : من أجل هذا الحجر الأسود
فهو من تراث نبي الله إبراهيم ، من استأثر برفعه إلى مكانه ، كان شرفه
فوق القبائل أجمعين .

فبسط محمدٌ رداءه ، ووضع الحجر فيه ، فأمسكوا بأطراف الرداء ،
ورفعوه ، ، وكلّهم اشتركوا فيه ، وأخذ به بيده فبناد في موضعه ، وما استأثر
به أحد ، ولا تخلف أحد ، وعادت السيوف إلى الأغمد ، وانزاح شبحُ
الحرب ، وشعّ السّلام والأمان !

وعاش عزيز النفس ، وادّرع الخلق ، طيب الشمعة ، نموذج المثال ،
حتى بلغ الأربعين من عمره ، فاكتمل وعيه ، ونضج رأيه ، واستوى
خلقه وأدبه ، وتسامى عن كل ما يعيب الرجال ، فقد صنعه الله على عينه ،
وأعدّه لرسالته .

والرسالة ، مهمّة خطيرة ، مهمة تغيير دين بدين ، وخلق عقيدة تمحو
عقيدة . والدّين لصيقٌ بالروح ، وميراث الآباء ، وتركه الأبناء ، ومزاجٌ
في الدم ، وتقديسٌ للأصنام والأوثان ، فهي الآلهة ، وهي المعبودة المرجوة .

وكل كلام يا محمد مقبول ، إلا أن تجترأ على الدين ، أو تسفه الأحلام ،
أو تعيب على الآلهة ، فدون ذلك الخصومة واللدد ، والقطيعة والحرب .
يا محمد ، إن كنت تريد غنى أغنيائك ، أو سيادة سؤدناك فأما الدين ، فلا .

واشتجر الدينان ، وبرزت بينهما نظرية تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح .
وصحت النظرية وصدقت ، وتنازع الدينان ، وثبت الحق ، وزهق الباطل
وصحح خبر النبي عليه الصلاة والسلام : لا يجتمع في الجزيرة دينان .

وكان أول من أسلم ، وأول من لقي الخبر ، خديجه زوجته .
وسألت في ذلك قريبها ، ورقة بن نوفل ، وعنده علم من الكتاب
فقرر صدقه ، وتمنى أن يطول به العمر ، حتى يشهد بعثه .
وتنبأ له بما سيلقاه من شدة وعنت في دعوته ، وأن قومه سيخرجونه
من بلده ، واستعظم ذلك النبي ، وقال : أو أخرجني هم ! ؟

وأسلم صديقه أبو بكر ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وزيد بن
حارثة ، أبو أسامة . وكانوا قلة ، وكانت الدعوة سرية .
وهكذا شأن الدعوات ، تبدأ سرية ، فتعرض الفكرة وتمتخص ،
وتربى في الندوة ، وتنمو في حجر الأقباع ، حتى إذا ما أصبحت عقيدة ،
ورسخت في الأذهان ، وتمسكت من القلوب ، تملك نواصي المعتقدين .

والنفوسُ أقوى مِنَ الأجساد ، فلا الجسدُ يَثْنِي النَّفْسَ عن الاعتقاد ، ولا هو يستطيع أن يسوقها إلى غير ما اعتقدت .

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتُ في مُرادها الأجسام
فلا يُؤثِّرُ تعذيبُ الجسمِ وأذاؤه في مجرى النفس ، ولا يَفُكُّ ما عقدتُ
من عزم .

ذلك الذى أثر في عمر بن الخطاب يوم أسلم ، ويوم جَهَرَ بإسلامه .
فقد كان أعنفَ الغاضبين على محمدٍ وأصحابه ، وَمِنْ خَشِيته ، كان المسلمون
يتوارَوْنَ في ندوتهم السرية ، يعقدونها في دار الأرقم ، ويُوصدون عليهم
الباب مخافة أن يقتحم عليهم مُقتحم .

وهمس هامس في أذن عمر : أنَّ أختك صَبَّأتُ ، واعتنقت الدين
الجديد ، فغضب وثار ، ودق بابها ، وخَدَشَ وجهها ، وأسال دمها ، وضرب
زوجها ، واختفى خَبَابُ مُقْرِئِهَا ، وهمَّ أن يأخذ الصحيفة من يدها .

ولكنها صرخت في وجهه ، وقالت : هذا كلام الله ، لا يَمْشُهُ إلا
المطهَّرون . فادخل إن شئتَ يا عمر وتطهَّر ، وإذ ذاك أسمعك ما كنا نقرأ .

أليس ذلك من توفيق الله ، أن تَشُنَّ المرأة على عمر ، حربَ أعصابٍ ،

فَقَلَّتْ من حَدِّته ، وأطفأت من غضبه ، وَلَيَّنت جَواحَه ، بالدم السائل

من وجهها ، وبالصرخة في وجهه . والضَّنُّ عليه أن يلمس الصحيفة قبل

أن يتطهر ، وبالتطهر بالماء ، وللماء تبريد !

ويأتري ماذا حدثته نفسه في كل ذلك ، لقد أنزل الله السكينة على قلبه وروحه حين أمسك الصحيفة وقرأ في سورة طه : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فاعْبُدْنِي ، وأقم الصلاة لذكري ، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ، أَكَادُ أَخْفِيهَا لتَجْزَى كلُّ نفسٍ بما تسعى !

ناقش عمرُ الرأي ، ومَحَصَه ، واعتقده ، فتملكته العقيدة ، فسخرت جسده ، فاندفع إلى دار الأرقم ، ودخل وأسلم .

وفعلت العقيدة فعلها في أبي بكر ، فأنفق كلَّ ماله ، وما خاف الفقر على عياله ، وفعلت العقيدة في عثمان ، فهانت عليه كل تجارته وثروته . وفي عليّ بن أبي طالب ، فوضع نفسه عرضةً للقتل ليلة الهجرة ، فكان أول فدائي في الإسلام وفعلت العقيدة فعلها في بلال ، فأشعلت قلبه ، وأطلقت لسانه يقول : أحدٌ أحد .

وفعلت العقيدة فعلها في النبي ، فما ألقى بالاً لوعيدٍ ولا تهديد ، ولا نظر إلى إغراء ، ولا غرَّه يوماً ثناء .

وعن العقيدة صدرت كلُّ أقواله المتحدّية ، يوم قال : لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، لم أترك هذا الأمر ، حتى يُظهره الله ، أو أهلك دونه .

وبالعقيدة جابهَ دولة الشرك بأتباعه الضعاف النحاف من المؤمنين . وبها تسامى عن أن يأبه لامرأة أبي هب ، تلقى في طريقه الشوك والأذى .

وترفع عن الوقح عُقبة بن أبي معيط ، يوم أمسك بخناقه حتى كاد يقتله .
وما استفزّه الغضب يوم ألقوا عليه كرش الذبيحة القذر وهو ساجد
في الصلاة .

وبحمّاسٍ العقيدة ، خرج هو وأبو بكر بالليل ، من وجه المتآمرين ،
فارّين بدينهما إلى المدينة ، لا يُباليان بالفرسان المحيطين بالباب ، ولا المتابعين
في الطريق ، ولا بالكفار جميعاً ، وهم منتشرون في الطرقات يطلبون دمه .

ذلك فعل العقيدة ، وذلك أثرها .

والفرق بين إنسان وإنسان وجرىء وجبان ، وصالحٍ وشيطان ، وكفرٍ
وإيمان أن هؤلاء اعتقدوا وأولئك لم يعتقدوا . فكان هؤلاء مبدأ ، وبقى
الآخرون مخلصين مذبذبين .

وبالثقة الواثقة ، والاعتقاد الراسخ ، لم يتورّع محمدٌ ، أن يُصبح ، فيحكي
للناس ، أنه رحل إلى الشام ، ولقِيَ الأنبياء في المسجد الأقصى ، وصلى بهم
إماماً لهم ، وأنه عاد إلى مكة في نفس الليلة !

وما من شك ، في أن هذه الرحلة ، وهذا الإسراء بالليل ، والعودة في نفس
الليلة ، كان ذلك مبعث قولٍ وإنكار ، وشكٍ وتفككٍ وتندّرٍ من
الجاحدين المنكرين .

فرحلةً طولها شهر ، والرجعة منها في شهر ، تتم في ليلة وبعض ليلة !
وعجبها أن تكون بروحه وجسده ، وقد تحدّوه وسألوه عن معالم الطريق ،
وعن الغادين والرائحين ، وأين تجارهم وتجاراتهم في الطريق ، ومن الراكب
ومن الحادي ؟

فأجاب ، ووصف ، وتحدّى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .
وآمن المعتقدون ، وأنكر المكابرون .

حتى لقد اختلف فيها المسلمون ، فقد قال الأكثرون ، إنها رحلة جسدية ،
بروحه وجسمه ، وقال آخرون : كانت بالروح ، والروح ترى وتصف ، سواء
أكانت في جسمها أم تجرّدت منه .

وقال ناس : إنها كانت بالرؤيا ، ورؤيا الأنبياء ، إملأ من الواقع والحقيقة .
وقالت عائشة : إنَّ الإسراء كان من بيتي ، وقالت ضُربتُ أم هاني :
إنَّ الإسراء كان من بيتي ، ولم تفقد إحداها جسد رسول الله ليلة الإسراء .

وجزى الله العلم خيرا عنا وعن رسول الله ، فقد كشف العلم عن الأثير في الجو ،
وعن موجات الصوت ، وسمعنا المتحدث في أقصى الأرض بجهاز الاستقبال
ورأينا الخطباء من أمريكا بجهاز التلفزيون .

ولعل القوم الذين كذبوا محمداً ، لو كان انكشف لهم من سرّ الكون بقدر ما انكشف لنا ، ما كانوا كذّبوه ، ولا كابروه ، ولعدلوا عن جحودهم الإسرء والمعراج .

وعاش محمد دهرأ ، سعيداً بزوجته خديجة ، فلما ماتت حزن عليها أعمق الحزن ولو كانت زوجةً وزوجاتٍ غيرها ، ما ذهب حزنه عليها . وما الحب إلا للحبيب الأول .

حتى إنه لما استأنف الحياة الزوجية بعدها ، استأنفها بفتاة صغيرة غريرة ، في سن الحادية عشرة أو تزيد ، عائشة بنت صديقه أبي بكر . وتزوج حفصة بنت صاحبه عمر ، وتزوج أم هانئ بنت عمه أبي طالب . وتزوج جويرية بنت الحارث ليؤلف قبيلة بني المصطلق ، وتزوج زينب بنت جحش ، وهند ، وصفية ، وميمونة .

ولكل واحدة من هؤلاء في زواجها بالنبي قصة ، وما أنستّه واحدةٌ منهن خديجة .

وكانت عائشة بنت أبي بكر ، تفارُ على النبي أشدَّ الغيرة ، حتى من ذكر خديجة ، التي لم ترها ، وكانت تقول فيها ، كلما سمعتُ النبي يمجّد ذكرها : « ما كانت إلا عجوزاً حمراء الشدين » .

وكان النبي يقول فيها : ما لها : صدقتني يوم كذب الناس ، وواستني يوم خذّل الناس ، وتاجرت بما لها ، وأنا أفقر الناس .

وكانت عائشة بنت أبي بكر ، تغارُ من كل امرأة ، فغارت من جُوَيْرِيَّة بنت الحارث . وجُوَيْرِيَّة بنت الحارث ، والحارث سيد بني المصطلق ، وقبائل بني المصطلق كثير عددهم ، أشداء في عنادهم وحربهم ، حاربوا النبي ، وأدال الله له النصر عليهم فغلبهم ووقع ناس كثيرون منهم أسارى في يد المسلمين . وكانت جَوَيْرِيَّة إحدى الأسيرات .

ووزَّع النبي الأسارى والأسيرات على المحاربين والفرسان من المسلمين بالقرعة ، فأصابت قرعة جَوَيْرِيَّة بنت الحارث ثابت بن قيس بن الشماس . فلما كانت منه وجهاً لوجه ، تأبَّتْ عليه ، وكاتبته على مبلغ من المال ، ليعتقها به ولا تزوجه . فرضى ، وانتظر حتى تعود إليه بالمال . فإلى من تذهب وتستعين على التحرُّر بالمال .

ولم تر أمامها إلا أن تطرق باب النبي ، صلى الله عليه وسلم . فطرقت الباب ، ففتحت عائشة ، فوجت لمرآها ، لمرأى فتاة جميلة مليحة قالت عائشة تروى حكايتها : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي ، حتى كرهتها ، وعرفتُ أن رسول الله ، سىرى منها ما رأيت .

ودخلت عليه ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جَوَيْرِيَّة بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقع في السهم لثابت بن الشماس ، فكاتبته وجئتُك أستعينك على كتابتي ! قال : فهل لك في خير من ذلك ؟

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

قال : أقضى عنك كتابتك ، وأنزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله .

قال : قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس ، أن بنى المصطلق ، صاروا أصهاراً لرسول الله .
فأعتق كل مسلم أسيرهُ أو أسيرته ، فأعتق الله أسرى بنى المصطلق .
وما إن بلغ الخبر ، حتى أتت قبائل بنى المصطلق إلى النبي مسلمين .

بل لقد اشتدت غيرتها على رسول الله ، يوم قال علي بن أبي طالب
يا رسول الله ، لا تحزن ، ففي النساء غيرها كثير .
وطوت هذه الكلمة لعل بن أبي طالب ، بين طيَّات قلبها أربعين
سنة ، ثم خرجت لحربه في موقعة الجمل .

كان ذلك في ليلة الإفك ، يوم تقول الناس عليها مؤتفكين .
كان ذلك يوم أن خرج النبي لغزوة من الغزوات ، وكانت عائشة
معه في الغزو ، فلما غزوا ورجعوا ، وطال على القوم السفر ، وانتصف الليل ،
أذن النبي للجيش أن يخطوا رحالهم ، ليستريحوا ويستجموا ويستريحوا .
وكانت عائشة في هودجها ، فأنزل الموكلون بها الهودج وأبعدوا فراحت هي
إلى بعيد ، تقضى حاجة ، وهي جالسة هناك ، أخذت تعبث بعقدتها فانفرط ،
وانتثرت حبَّاتُها ، فانشغلت في جمعها ، وقضت مدةً طويلة .

وكان النبي قد أذن بالرحيل ، فرفع الحراسُ هوَدَجَها على الجمل وهم يظنون أنها فيه ، فهي صغيرة ، خفيفة الشحم واللحم ، ولا يُحسُّ وزنها .

وسار الجيش ، وخلفوها ، فلما عادت ، لم تجد إلا نفسها ، فقَبَعَتْ ، وطوت نفسها على نفسها ، والتفت برءائها ، تنتظر قضاء الله فيها .

وكان يحرس مؤخرة الجيش ، الفارسُ صفوان — يسير بعد الجيش بقدر ساعة مَسِير ، فلما وصل ، دار في المكان ، لعلَّ أحداً نسيَ درعه أو سلاحه . فلم يجد إلا عائشة ، فسألها ، فلم ترد ، فنزل عن جواده ، فركبت ، وأمسك باللبام ، وسار بها حتى دخل المدينة ، في ضحوة النهار .

وكان ذلك الحادث ، فرصة ذهبية للكافرين والمنافقين ، يتقوّلون فيها ، سويًا فيكون على عائشة زوجة النبي ، وبنت صاحبه أبي بكر ، وهي شابة جميلة . ما آخرها ؟ ومع مَنْ وصّات ؟ وما صفوان ؟

وما مِنْ شك في أن وقع ذلك كان أليماً على نفس النبي ؟ واستشار اثنين من خاصته ، وأمسَّ الناس به وأستَرهم عليه ، على ابن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، وكان أسامة منه بمنزلة الولد .

فأما أسامة ، فمدح وأثنى وبرّاً ونفى الشك والشبهة . وأما عليُّ بن أبي طالب ، فقد تأثّر لمظهر النبي ، وكمدّه وحُزنه وهُزاله .

وأحبُّ أن يخفف الوطأة على ابن عمه رسول الله ، فقال :

يا رسول الله ، لا تحزنُ في النساء غيرها كثير .

واسألُ الجارية تجيبك .

واستدعى رسول الله جاريته بُرَيْرَةَ .

وقبل أن تشهد ، قام إليها على فضربها ضرباً شديداً ، وهو يقول لها

اصدقني رسول الله .

قالت الجارية بُرَيْرَةُ : والله ما أعلم إلا خيراً وما كنتُ أعيب على عائشة

شيئاً إلا أنى كنتُ أمجنُ العجين ، فأمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الغنم ، فتأكله .

وحفظت عائشة ذلك لعلى ، وبعد أربعين سنة ، خرجت لحربه .

ونزل القرآن فى سورة النور ، مُعلنًا براءتها ، وبراءة صفوان معها .

إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم .

إِذَنْ ، فلم يكن النبی مزواجاً ، إِلَّا لَرَبِطِ صَدِيقِ كَأْبَى بَكْرٍ وَعَمْرٍ ،
وَالْأَلِ لَرَبِطِ قَبِيلَةٍ وَتَوْرِيْطُهَا ، كَقَبَائِلِ بَنِي الْمَصْطَلِقِ ، أَوْ لَتَعْوِيْضِ أَرْمَلَةٍ
انْقَطَعَتْ وَاسْتَشْهَدَ عَائِلُهَا وَزَوْجُهَا فِي الْحَرْبِ .

أَوْ كَانَ ذَلِكَ لِتَشْرِيعِ يَدْفَعُ الْخُرْجَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، يَوْمَ أَنْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ
مِنَ التَّزْوِجِ بِزَوَاجَاتِ أَدْعِيَائِهِمْ .

وَالْأَلِ فَقِيمَ قَضَى النَّبِ رَيْعَ الْعُمَرِ إِلَى خَدِيْجَةَ وَحَدَّهَا ، لَمْ يَنْتَسِعْ

قَلْبُهُ لَغَيْرِهَا ؟

التحریم

الغيرة ، وقانا الله نارها .

يروى فى الأساطير ، أن إبليس لما أكلت نار الغيرة قلبه ، من آدم ، وسكنه فى الجنة ، وسجد الملائكة له ، وطبّشت الغيرة عقله ، فقال لربه : أنا خير من آدم ، خلقتنى من نار ، وخلقتة من طين .

يروى أن إبليس ، أجهد نفسه فى تدبير حيلة ، ليخرج بها آدم من الجنة ، ودبر أن تكون الحيلة ، توقع آدم فى العصيان ، فتوقعه فى غضب ربه ، فيطرده من الجنة .

يروى أن إبليس ، اخترع المرأة ، وصنعها كبيرة ، على قدر نافذة واسعة ، وجاء حواء ، وما كانت تعرف الزجاج ، ولا المرأة ، ولا أنها تعكس الأشياء ، وقال يا حواء : أين آدم ؟ مالى أراه مشغولاً عنك ؟ إني أراه يغيب ، فيطول غيابه ! فقالت حواء : إنه يا إبليس هناك ، فى روضة نائية من رياض الجنة ، يتعبد ويتأمل ، ويطل السجود تحت عرش الله ، غارق فى تأملاته وتسبيحاته ، فلاخوف عليه من غيابه .

فقهه إبليس ساخراً من قولها ، هازئاً من غفلتها وبلاحتها ، واستغفال آدم إياها ، وأنه مشغول بحواء أخرى غيرها ، تزوجها ، ونعم فى جوارها ، وغرق فى السعادة بضرة ممتعة فى رحاب فسيحة فى أطراف الجنة .

فوجت حواءً وانذعرت ، وانخلع قلبها ، وما يخلع قلب المرأة إلا الضرّة .
وكذبت إبليس ، وغطت عينيها بيديها ، استبشاعاً للخبر ، وقالت :
يا إبليس ما خلق الله في الجنة ، ولا في العالم حواء لآدم غيري .

وقهقهه إبليس ، وقال : يا حواء يا بلهاء ، يا غافلة ، صدقيني ، فأنا آتٍ
من هناك ، وقد رأيتهما بعيني ، يسرحان ويمرحان .

قالت حواء : أو أستطيع يا إبليس أن أراها بعيني ، فأصدقك !
فأدار إبليس المرأة أمام حواء ، فرأت وجهها وجسمها في المرأة ، وصدقت
أنها رأت بعينها ضررتها ، التي اختطفّت آدم من أحضانها ، فبرد جسمها ،
والتهب قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها ، وفعلت الغيرة فعلها .

وهبت تجرى لتبحث عن آدم ، فاستوقفتها إبليس ، ليهمس في أذنها ،
ويوسوس لها : أن آدم حين يراها من بعيد ، سيخفي حواء الجديدة . ويفرك
بأن يسجد ، ويطيل السجود ، حتى توقظيه ، فإذا سألتيه ، أنكر واستبعد .
فإذا أصرّ على إنكاره وجحوده ، فاستحلفيه ، وسيحلف ويحنث في يمينه .
قالت حواء : يا إبليس ، أكرّرت علىّ ، وحيرتني ، وما أستطيع أن
أكلفه فوق يمين بالله إنه لمن الصادقين ! .

وقهقهه إبليس قهقهة عالية صاخبة ، دوّت في أذنيها ، وقال يا حواء يا مسكينة ،
إن آدم يهون عليه كل غال ، في سبيل حواء الجديدة ، وأنا حزين عليك ،
أفكر في أمرك ، وسوء مصيرك إذا هجرك ، ومن ذا يكون لك إذا كان
قد هجرك وغدر بك .

يا حواء : لا تستحلفيه ! ولكن ضيق الخناق عليه ، وخذيه تحت الشجرة المحرمة ، واقطفي منها ثمرة وقدميها إليه ، فإن امتنع عنها وأبى أن يأكل منها ، كانت حواء الجديدة عروساً جديدة ، فاتنة زوجك ، خاطفة آدم ، وأكون قد صدقتك ، فلا تكذبنني فيما أقدم لك من نصيحة .
وإن أكل من الشجرة ، كان آدم صادقاً ، وكنت كاذباً ، فلا أعود عليك بعدها بنصح ولا إرشاد .

وجرت حواء تبحثُ عن آدم في جنبات الجنة ، فلما عثرت عليه ، ارتمت بين يديه ، شاكية باكية ، تلطم خدها ، وتندب حظها وتتهمه بالغدر والخيانة وتذره بالوبال والنكال ، وتذكره أنه لها وحدها فكيف ، يشرك معها غيرها ؟ ويتزوج ضرة عليها ؟ .

فنفى آدم خبرها ، وعجب أن يرد هذا الخاطر على بالها ، وذكرها أن حواء واحدة في الجنة ، وأنه لا نظير لها ، ولا مزاحم في حبها .
وبكت ، ودمعت ، وأرسلت الزفرات والآهات ، وأطالت النحيب والعيول ، وآدم بطيب خاطرها ويربّت عليها ، ويذهب شبح الضرة عنها ، ويحلف لها ، وينقطع عن العبادة ، ويجلس جنبها .

ولكن نار الغيرة مستعرة ، فقالت : يا آدم ، دع أيمانك وحلفانك ، يا آدم ، تعال تحت الشجرة المحرمة ، فهناك تظهر الحقيقة ! .
يا آدم هنا ، في ظلالها ، وتحت ثمارها ، لا تستطيع أن تكذبني .

هنا يا آدم : تستطيع أن تريحني ، وتطفىء نار غيوتي ، وتنفي الشك الذي يقتلني ، إذا أكلت من هذه الشجرة ! .

وانزعج آدم من هول ما طلبت ، وذكرها أن الله حرمها عليهما ، وأن غضب الله لاشك محيق بهما .

ولكن الغيرة أعمت عينيها ، وإبليس أجج لهيبها ، وطمس على قلبها ، فصرخت وصاحت ، وردّ الصدى صراخها وصياحها ، حتى لكان الجنة قد ملئت حواءات تصرخ وتصيح معها .

ورق قلب آدم ، وأدفا الحنين جسمه ، وسوّخ عزمه ، وأسأل عبرته ، وخشى على حواء أن تموت من غمها ، فانكبّ عليها يقبلها ، ويمسح بخدّه دموعها ، وهي تمد يدها في فمه بشمرة من ثمار الشجرة ، فأكلها .

فبدت لهما سوءاتهما ، وانكشف سترهما ، وحل غضب الله عليهما ، وطفقا يخفضان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهما عن تلكا الشجرة ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين .

وفعلت الغيرة فعلها ، فطردها الله من الجنة ! .

وفعلت الغيرة فعلها ، فألهبت قلوب إخوة يوسف ، ابن ضرة أمهم ، فرموه في الجب .

وألهبت الغيرة قلب سارة زوج سيدنا إبراهيم على ضررتها هاجر ، فحتمت على إبراهيم أن يأخذ هاجر وولدها إسماعيل ، ويرميها في الوادي الخراب .

وأهبت قلب أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي ، على ضررتها
السيدة خديجة ، حتى كانت تقول فيها : ما كانت إلا عجوزاً ، حمراء الشدقين .
وغارت السيدة عائشة ، من ضررتها جُويزية الجميلة بنت بنى المصطلق ،
حتى كانت تقول : والله لقد كرهتها منذ رأيته ، وكرهت أن تدخل على
رسول الله ، فيرى من جمالها ما رأيت ! .

وغارت عائشة على النبي ، من قولة عليّ بن أبي طالب : يا رسول الله ،
لا تحزن ، ففي النساء غيرها كثير ، وخرجت بعد أربعين سنة ، لحرب على
في موقعة الجمل .

وسرت عدوى الغيرة ، على رسول الله ، بين نسائه ، حتى إنهن غرن
جميعاً ، من مارية القبطية الجميلة ، التي لم يسكنها معهن في المدينة ، وإنما
أسكنها في ضاحية العالية في منزل أنيق ، تحيط به الزروع والكروم .
ووهب الله له منها الولد ، يوم لا ولد ، ويوم استبدت به الالهفة على الولد ،
فأكثر من التردد عليها ، والمقام عندها ، ليشبع جوعة الخلف ، وليروى ظمأه ،
ويشرب الرحيق من تقبيل ولده إبراهيم .

ومالك يا عائشة ، لا تستطيعين أن تخفي غيرتك يوم حمل النبي إليك
ولده إبراهيم بين يديه ، فما باركت ، ولا بشئت ، ولا أحسنت استقباله !
وأنت تعلمين أنه بلسم لجراح دامية في قلب النبي ، وقد أشرف على الستين

بلا ولد ، لامن عائشة ، ولامن حفصة ، ولامن صفية ، ولامن ميمونة ،
حتى ولدا خديجة ، قد ماتا من قبل إبراهيم ! .

لقد سئمت حفصة بنت عمر ، زوجة النبي ، المقام على الغيرة ، فاستأذنت
في أن تزور أباهما عمر في داره ، فأذن لها .

وصادف أن جاءت مارية القبطية من ضاحية العالية ، ودخلت على النبي ،
فأنزلها في منزل حفصة ، وهي غائبة .

وأحسّت حفصة ، فأسرعت ورجعت ، ورأت ضررتها في منزلها ، فغارت
وحسبت أن ذلك إغاضة لها ، وامتهاناً لكرامتها ، فغضبت ، ولسعته الغيرة ،
فبكت ، واحتجت ، ورفعت صوتها ، وقالت : أفي بيتي ، وعلى فراشي ،
يا رسول الله !

والنبي لا يحب ذلك ، ويرى أن يسكت هذه الضرة الغيرانة ، ويرى
أنها سوف لا تسكت إلا بمضارة ضررتها ، فأسرّاً في أذن حفصة كلمة سرّها إليها :
أرضيك يا حفصة أنتي حرّمت على نفسي مارية أم إبراهيم !
ولكنّ يا حفصة ، إذا كان هذا في مرضاتك ، فعليك أن تحتفظي بسرّه ،
لا تفشيهِ ولا تذيعيهِ .

ولمّ كلّ هذا يا محمد ؟ تحرم على نفسك ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة
أزواجك ؟

وما أنت بمرضيهن مهما جاملت ، وهن لم يجاملنك ، حتى لو طوحت
بها في الوادي السحيق كما طوح إبراهيم بهاجر وولدها إسماعيل !

وهن لم يجاملنك حتى في موت إبراهيم !

أرأيت يا محمد ، أنك حين استرضيت حفصة بنت عمر ، بتحريم مريم أم ولدك ، على نفسك ، واشترطت عليها ألا تذيع ؛ أرأيت أنها نفذت عهدك وطوت في قلبها سرّك ؟

المرأة هي المرأة ، إلا من عصم الله ، وزوجاتك أمهات المؤمنين ، غيورات عليك ، ولا تطيق حفصة أن تطوى صدرها على نار غيرتها ، ولا بدّ لها أن تفضفض عن نفسها ، وتتناجى بهما إلى زميلتها عائشة بنت أبي بكر .
ولا سرّاً مودعاً بين ثلاثة ، فقالت عائشة لصفيّة ، وقالت هذه لتلك ، وقالت تلك للأخرى .

والنبي ليس خالياً لمثل هذه المباحكات بين الضرائر .
فله من أمر المسلمين ، ومن الرسالة ، ومن شئون العبادة ، ومن تصريف الناس ، ما لا يبقى من وقته لهذه أو تلك .
فاغتم لذلك ، واعتزلهن في خلوته ، وأقام مولاه ربّاحاً أبا بلال على باب الخلوة ، لا يسمح لزائرة ولا زائر ، واعتكف شهراً كاملاً ، حتى تحدث الناس ، وخمنوا ، وظنوا أن النبي مطلق زوجاته جميعاً .

وتلك أزمة ، ترج النبي ، وتطلق الألسنة الحداد عليه وعلى نسائه ، وتهز المجتمع الإسلامي ، وما يزال في بدء حياته ، وطراوة شبابه .

ومَنْ لهذه الأزمة ، يدركها قبل أن تستحكم وتستفحل ويفوح ريحها ، ويعلو دخانها ؟ مَنْ لها غير عمر ؟
لقد استأذن على النبي ، فما أذن ، فرفع صوته ، فأذن له ، ودخل عمر ، ورأى من حال النبي ما أبكاه ، فبكى .
وعمر بارع ، فما هذا بالموقف الذي ينفع فيه البكاء ، وإنما هو المواساة والتفاهم والإقناع .

وحاور النبي وداوره ، حتى أذهب عنه غمه ، وسرّى همه ، واستشفع في النساء المخططات .

وقال : يا رسول الله إِنَّ نساءك ، إن كنَّ غيورات ، فَإِنَّ غيبرتهن عليك .
وليست غيبرتهن إلا حباً فيك ، واحتفاظاً بك ، واستئثاراً بشرف المثل بين يديك .

وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به ، وأظهره الله عليه ، عرّف بعضه ، وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به ، قالت : من أنباك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير ، إن تتوبا إلى الله ، فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه ، فَإِنَّ الله ، هو مولود ، وجبريل ، وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير .

عسى ربه ، إن طلقكن ، أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، مسلمات ،
مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات ، وأبكارا .
وخرج النبي من اعتكافه ، وبارح خلوته ، وعاود نساءه ، وقد رجعن
إليه واعتذرن من جرأتهم عليه .
وعرفن أن الغيرة نار ، وما يجدر بهن ، أن يزدن النار لهيباً .
وقانا الله نارها !

التبني

وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

ادعوهم لأبائهم ، هو أقسط عند الله .

فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم في الدين ، ومواليكم .

جرت سُنَّة العرب ، على التَّبَنِّي ، واتخاذ أبناء الغير أبناء .

وكانوا يحملونهم محل الأبناء من الصلب والنسب ، فيخلعون عليهم من الحذب والكفالة ، ومن التوريث ، ومن الإقامة بين المحارم ، ويتزوجونهم بأسمائهم وألقابهم ، وأجناد قبائلهم وأسرهم ، حتى لكانهم من أصلابهم .

وكان هؤلاء الأبناء الأدعياء ، سدًا منيعًا في وجه الأهل والأقرباء ، في وجه الوالدين ، والأخوة والأخوات والأهل في الميراث ، وفي حرمانهم من المودة والمحبة ، وكانوا سببا في كثير من مشاكل الأسرة .

وكانوا بذور الكراهية ، بين الرجل الذي تبناهم وبين أهله ، وكانوا ينظرون إلى هذا الدعي ، وقلوبهم ضائقة به وعواطفهم جامدة عليه ، فهو مقتحم عليهم أسرته ، ودمه ليس من دمهم ، وإذا ورث اسمهم ، ومجد

أسرتهم ، فسرعان ما يتحلل منه ، ويتنكر له ، ويختلج النسب الذى أضفوه عليه .

وهو إذا حجب الوراث ، واستحوذ على المال ، كان هذا المال هيناً عليه فيئدده ويهلكه فى الكيد لهم .

وهو إذا أقام فى منزل الرجل الذى تبناه ، مع زوجته ، لم يجد من نفسه ولم يجد من نفسها عاطفة بنوة ولا أمومة .

وجرت سُنَّة العرب ، أن يكرموا هؤلاء الأدياء ، فيحرموا على أنفسهم أن يتزوجوا زوجات هؤلاء المتبنين ، إذا طلقوهن ، أو ماتوا عنهن ، وكان هذا الحرج ، أظهر مظاهر التَّبْنى والأدعاء .

وسبق فى علم الله ، أن يحرم التبني والأدعاء ، لما فيه من تعكير صفاء الأنساب ، ولما فيه من خلق الكراهية من الأقرباء ، ولما فيه من تحدى لإرادة الله حين يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً .

وهياً الله ، جلت حكمته ، لهذا التحريم سبباً ، يهدم به هذا العرف ، ويقوض به أركان هذا التقليد .

وأن يكون معولُ الهدم ، والخارجُ على العرف ، والمستهدفُ للتجريح

والنقد ، هو محمدًا نفسه . فهو أقدر على التجريح والنقد ، وهو أجلد على مجابهة الغمز واللمز .



كان ذلك يوم أن وهبت السيدة خديجة ، مولاهما وعندها ، زيد بن ثابت الذى اشتريته بمالها ، لزوجها محمد ، ليكون عبده ومولاه .
والنبي ، محرر للعقول ، فكيف لا يعتق الجسوم ؟
فأعتق زيداً ، وتبنّاه ، وأكرمه ورعاه ، وأفرغ عليه عاطفة الأبوة الشاغرة وعرف الناس أنه ابن محمد ومتبنّاه .

وأراد النبي ، أن يتزوج هذا العطف على مولاه زيد بن ثابت ، بأن يزوجه ، وأن يزوجه إحدى كرائم العرب ، وذات الأصل والحسب .
وكان أن اختار له ، زينب بنت جحش ، وهى بنت عمته ، وخطبها له .
واستعظمت زينب ، واستعظم أخوها عبد الله ، أن يتزوج زيد هذا ، فتاة عربية أصيلة حرة ، لم يجر فيها استعباد ولا رق كما جرى فيه ، مهما كان مولى النبي ، ومهما كان قد أعتقه .

ولكن القرآن نزل يحطم هذه العنجهية ، ويروّض هذه العصبية المترفعة .
وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضلّ ضاللاً بعيداً .

وتزوج زيد بن ثابت ، العبد المولى ، زينب الحرة الأصيلة الجميلة ، وعاشا

زمنًا ، يتوود إليها ، فلا تود ، وتروض نفسها على زوجها ، مرضاة ، والتزامًا
لاختيار النبي ، ويحس زيد منها كل آونة ، تكرُّها وتائبًا وتسامياً .
ويسبق في علم الله سبحانه ، أن هذا زواج ، له نتائج وخطورته .

والنبي يدرك ، أن هذا زواج على تكرُّه وتأيي ، وأنه لا بد صائر
إلى الانفصال .

ولكنه لا يسبق الحوادث ، ولا يتعجلها ، ولا يود أن يفصل فيه ، من
قبل أن يفصل الله فيه .

فإذا جاءه زيد متبرماً من كبرياء زينب ، واستعظامها عليه ، شاكياً منها
مستأذناً في طلاقها ، استمهله النبي ، وطيب نفسه ، ووعظه وصبره .
ويدخل عليها النبي فينصحبها ، ويسلس جموحها على زوجها ، ويروضها
على الرضا بإرادة الله .

ويخرج فيقول لزوجها : أمسك عليك زوجك ، فهي كريمة وأصيلة ،
واتق الله فيها ، وعالج فيها هذه الأنفة ، ولا تطلقها ، فتكسر نفسها ، وتطلق
ألسنة الناس فيها ، فالطلاق فجيرة النساء .

والنبي يقول ما يقول بلسانه ، ونفسه مدركة نهاية هذا الزواج ، ويخفي
هذا الإدراك ، ويستتر ما يعلم ، حتى يُظهره الله .

والنبي يدرك ويعلم أن تطليقها سيحدث رجة في المجتمع ، وخلصه في التقاليد .

والنبي يخشى أن يقرّ تطليق الزوجة ، إذا تأبّت على زوجها العتيق .
والنبي يخشى أن يطلق زيد زينب ، فقد تصبح زوجة للنبي ، من بعد زيد مولاه ، فيحرق العرف ، وينقض التقاليد ، إذا تزوج زوجة متبنا فيدركه الحرج ، ويدرك الناس .

والنبي من أجل هذا ، يخفى في نفسه ما الله مبدية ، ويخشى الناس ، والله أحق أن يخشاه .

وإذا تقول للذي أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى في نفسك ما الله مبدية ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا ، زوجناكمها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا .

وما الإنسان ، إلا عقلٌ وعواطف ، فإذا غلب العقل على العاطفة ، كان ذلك خيرا ما يرجى من إنسان مهذب عاقل ، لا تغلبه عواطفه ، ولا تستهويه شهوته ، ولا تستبد به نزوته .

فإذا منح الله الأمان من العواطف للإنسان ، وضمن له السلامة من الزلل ، كان ذلك هو العصمة ، التي لا تمنح إلا للأنبياء .

ولكن ليس معنى العصمة والأمان من الزلل ، وتغليب العقل ، ورجحان
البصر على العواطف والوجدان ، أن عواطف المعصومين قد ماتت ، أو أن
أحاسيسهم قد تبلدت ، أو أن وجداناتهم قد سقمت ، أو عيونهم قد انطرفت ،
عن مشاهدة جلال الله في جميل صنعته ، وإدراك الجمال البادي في خلقه .

هم ناس ، لهم إحساس ، ولكنهم معصومون ، يرون الجمال ، فيقع في
نفوسهم ، أو يقعون فيه ، فيتحركون له ، ولكنهم في نطاق العصمة محروسون .

وإذن فلا غرابة ، أن رسول الله ، حين دخل يحدثها في شأن زوجها ،
وقد تبلدت له ، أن وقعت في نفسه ، فسبّح الله في جلاله ، ومجده في جمال خلقه ،
وهمّ خارجاً من فوره ، وقال : سبحانك يا مقلب القلوب .

ورأت زينب ذلك منه ، وسمعت تسبيحه ، فأشفقت على النبي ، وذكرت
ذلك لزيد بن ثابت .

فدخل في نفسه شيء منها ، واستشعر في نفسه فرق ما بين منزلته
وقدرها ، فطلقها .

وكان سفيرا في تزويجها من النبي ، ليمتحن الله قوته في إيمانه ، وسيطرته على
نفسه وغيرته ، ورسوخه في عقيدته ، وأن ذلك إنما كان تشريعاً للناس ،
إلا شباعاً لرغبة ، ولا اتباعاً لهوى .

وتزوجها النبي ، وحطم ذلك التقليد العتيق ، المخرج للعرب ، الجالب للنفرة ،
المقطع لأوصال القرابة .

لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم .

وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

ادعوهم لآبائهم . هو أقسط عند الله .

فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم في الدين ، ومواليكم .

وكانت تلك منزلة شريفة ، هزت نفس زينب ، وازدهتها ، واستخفتها فرحاً
بزواجها من رسول الله .

فكانت تباهى وتفاخر بها زوجات النبي الأخريات .

وكانت تقول لمن : أنا خير منكن ، فقد زوجكن آبؤكن وأولياؤكن

وأما أنا ، فقد تولى الله تزويجي من رسول الله .

فأين منى أنتن !

المظاهرة

كذلك جرت سنة العرب في الجاهلية على المظاهرة .

والمظاهرة أقسى وأعنف أنواع الطلاق .

والطلاق أبغض الحلال إلى الله .

فإذا غضب الرجل على الزوجة طلقها ، فإذا اشتد غضبه عليها ، وعنف في غضبه ، حتى ما يعود إليها ، ظاهر منها ، فقال لها : أنتِ على كظهر أمي .

طلاق لا رجعة فيه ، وفراق لا وصال بعده ، وأسرة تتفكك ، وأطفال تُشرد ، فإذا بقوا مع الأب ضيعتهم زوجة أبيهم ، وإن راحوا مع الأم جوعهم زوج أمهم .

ومن أجل هذا ، حرّم الإسلام المظاهرة ، لجنايتها على الأسرة والزوجة ، والأبناء .

وما جنى الأبناء ذنباً ، إلا ما جناه حق الآباء .

وما جنت الزوجة ذنباً ، إلا ما جناه سَفَه الأزواج ، وسوء تصرفهم في حق التطليق ، فيحرمون زوجاتهم على أنفسهم ، كتحريم أمهاتهم عليهم . وفرق كبير بين الزوجة والأم ، فالرجل من أمه ، وأمّه له ، لا فصل ولا انتقال . ولكن الزوجة غريبة لا يربطها به إلا عقدة الزواج ، فإذا

ظاھرھا انفصمت . العقدة ، وانحل الرباط ، وتقطعت حبال المودة ، وغادرت البيت ، وامتد لهيب الغضب إلى الأبناء فحرقتهم نار الهجران .

ومن أجل هذا نزلت أربع آيات من القرآن ، تحرم المظاهرة من الزوجات ، وتندد بالمظاهر ، وتوبخه وتقرعه ، على فعله الخطير ، المفكك للجماعة ، المشرّد للأطفال ، الموجب للجفوة والعداوة بين الأصهار .

ووصف القرآن علاجاً لهذا الداء ، ودواء يشفى منه ، ويؤدب الحمقى من الأزواج ، والعلاج قاس ، والدواء مر ، ولكنه يؤدب الجاهلين البطرين بنعمة الزوجية ، ويعود بالخير على آخرين .

والداء الذى لا بد أن يتجرعه مَنْ بظاهر من زوجته حتى يخف ويعود صحيحاً معافى فى نفسه ودينه وأسرته وينعم ثانية فى رحاب زوجته ، ولمّ شمل أولاده ، أن يعتق رقبة عبد من عبيده ، فيكسب العبد حريته ، ويكسب المجتمع الإسلامى نفساً تحررت ، وتُضم إلى مجموعة الأحرار ، وتنقصُ عدد العبيد المؤمنين .

وقد لا يتيسر هذا الدواء الآن ، دواء عتق الرقبة ، فقد مضى زمن الرق ، ولم يعد فى الإسلام عبودية ، إلا ما بقى فى بلاد الحجاز ، فما يزال هناك العبيد والإماء يباعون فى سوق النخاسة ويشترّون .

وإن لم يستطع أن يشتري عبداً ويعتقه ، كان عليه أن يتجرع دواء

الصوم ، يصوم شهرين متواصلين ، فيكسب كفارة عن جريمة ، وتطهيراً
لنفس جريئة على الشر ، ويكسب المجتمع رجلاً تهذب بالصوم ، وتأدب
بالحرمان ، وذاق حرارة الفسوق والعصيان .

فإن لم يستطع أن يصوم ، كان عليه أن يطعم ستين مسكيناً من المسلمين ،
فيكسب المساكين طعاماً من أخ مسلم مخطئ ، فيطعمون ، ويتعظون ،
فلا يقعون فيما وقع فيه من خطأ .

* * *

أسمعت كل هذا يا أوس بن الصامت ، يا من ظهرت من زوجتك
خولة بنت ثعلبة . فأزعجتها ، وهددت عليها بيتها ، فذهبت إلى رسول الله
تبكي وتشكو ، وتلتمس عنده مخرجاً ، ويقول النبي لها : يا خولة ، لقد
حرمت عليه ، فلا يجمعكما سقف واحد .

وتقول خولة للنبي : يا رسول الله ، كيف هذا ؟ وزوجى لم يذكر
كلمة الطلاق ؟

فيقول لها النبي : يا خولة : المظاهرة شر أنواع الطلاق !

فتقول خولة : وأولادى وبيتى يا رسول الله ؟

فيقول النبي لها : يا خولة ، لا بدّ من الفراق .

وتجادله ويجادلها ، وتلتمس حلاً للعقدة ، وتفريجاً للأزمة ، وليس عند

النبي من حلٍّ مشروع ، ولا قرآن منزل .

* * *

وخولة مكروبة محزونة ، زائغة البصر ، مرجوفة من الخراب والتشتيت .

فرفعت رأسها إلى السماء ، واتجهت إلى الله ، تسأله وتدعوه .

ويقول الله - ادعوني أستجب لكم .

واستجاب الله لها ، فنزل الوحي ، وأسمع النبي أربع آيات مفصلات :

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع

تجاوزكما ، إن الله سميع بصير .

الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم

إلا اللأئي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله

لعفو غفور .

والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة

من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير .

فمن لم يجد ، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا .

فمن لم يستطع ، فإطعام ستين مسكينا .

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله .

الابتغال والمباهلة

نصارى نجران ، ونجران إقليم باليمن ، مثل قبط مصر ، ومثل سائر الأقطار والأقاليم ، التي حول الجزيرة العربية .

أقطار مظلمة بظلام الشرك والكفر ، وأطبق عليها الرهبان والأخبار ، والقسس والأساقفة ، وضربوا عليهم نطاقا من حديد ، واستولوا على عقولهم ، واستنزفوا أموالهم ، وأقاموا بينهم وبين العقل ونور الإيمان سدوداً وحدوداً .
إن كثيرا من الأخبار والرهبان ، ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

وكان لابد للنور الإلهي أن تمتد أشعته ، فتتير العقول ، وتبدد الأوهام ، وكان أن أرسل النبي كتبه إلى هذه الأقطار يدعوها إلى الله ، ويعرض عليهم الإسلام . ويرغبهم فيه .

وكان النبي طبيباً معالجاً ، والطبيب . يصف العلة ، ويقرر الدواء فإن شرح ، الله صدر المريض ، وتعاطى الدواء ، كتب الله له البرء والشفاء .

وإن أبي أن يتعاطى الدواء ، وركب رأسه ، واستحب أن يعيش عليلاً ممرضاً ، كان من حق الطبيب أن يخيره بين الرضا والخنوع للطب والتطبيب ، وبين أن تشتد عليه العلة ، فيهلك ويموت .

وكان من حق الطبيب ، إذا هو خشى على الأصحاء المخالطين والمجاورين لهذا العليل العنيد ، أن تتسرب إليهم عدواه ، وإذا هو خشى عليهم منه ، أن يعتمد الاختلاط بهم ، والاندساس فيهم ، وتخريضهم على أن يعودوا من صحتهم إلى مرضه ، وإذا رأى هذا المريض يثور في الأصحاء ، ويعتدى عليهم ، ويهدد حياتهم ، كان من حق الطبيب أن يجبره على التداوى ، وأن يشهر عليه عصا التأديب ليعالج حمقه وسفاهته ، ويمرّض فيه سوء رأيه ، ويطبّب جهالته وغباوته .

إنما مثل محمد في رسالته ، مثل الطبيب في تطيبه .
فقد بعث إلى الناس رسائل ، تفصح عن خطر الشرك والكفر ، وتوضح نور التوحيد والإيمان ، وتبشر بالرضا والهداية ، وتنذر بالعذاب والخسران .
فبعض الناس اهتدى وآمن ، وبعض الناس ركب رأس الشيطان ، وأمعن في الكفران ، وحمل السلاح ونزل الميدان .

والنبي طبيب البشرية ، قيّم على هؤلاء الحمقى الخاسرين ، بتكليف من الله .
إن يشفقكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون .

فقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله .
وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقتلونكم كافة .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم .

أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن شهدوا ، حقنوا دماءهم ، وأنفسهم وأموالهم ، إلا بحق من حقوق الله .

ومن حق القيم ، أن يكتب ويرسل ويدعو هؤلاء إلى الله .

وبعث إلى المقوقس ، عظيم القبط بمصر ، يخبره بين ثلاث .

الإسلام وهو خير ، أو الجزية ، وهى مسألة وخضوع وفترة تفكير لعلمهم

يسلمون ، أو الحرب ، وهى القسر ، وتعقيل الجاهلين ، وتأديب العاصين .

وآثر المقوقس ، أن يدفع الجزية ، ويقدم المال ، ويبعث بالهدايا ، وكانت

هداياهم عجيبة ، فرساً تركب ، وتقديم الفرس للراكب ، خضوع وتسليم ، وطيباً

يداوى ، وفى تقديم الطيب ، رجاء للصحة والعافية وامتداد للأمل ، وفتاة

مصرية قبطية جميلة ، وفى تقديمها ، تقديم للخدمة ، وتسليم للعرض ، امتحاناً

فى الاحتفاظ به وصيانتته ، وقد يكون سبباً فى الارتباط به ومصاهرته .

والخيل العربية أصيلة ، وليس لها فى الدنيا نظير ، وعند العرب منها خير

مما عند القبط بمصر ، وهم ركاب خيل من قبل أن يركب الناس .

والطبيب يعالج المرضى العلولين ، ومحمد طيب النفس والجسد ، ودستور

دينه ، لا يدع الشعب يمرض ، وليس فى المسلمين مريض يعالج .

ونحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، فمن أين نمرض ؟

ويا طبيب الاسكندرية ، احمل سلامنا إلى أهلك ، واشكرهم على إهدائك ، فمرضاكم أولى بك ، ولعلك تعود إلينا ، ومعك أهلك ، مسلمين .

وأنت أيتها الفتاة القبطية ، عزيزة على قومك ، وأنت حبل من حبال ودادهم ، ووصلة تربطنا بهم ، وإعزازك إعزاز لهم ، واستمالة لميولهم ، والتصاهر بك ، تمهيد لطريقهم ، وتوريط لهم ، فأنت مقبولة لدينا ، كريمة علينا ، وبين يدينا وعينينا ، ولعل الله يسوق منك الخير والولد إلينا .

ونصارى نجران ، فى قبضة الرهبان والأساقفة ، والخبر يقبض على لجامهم بيده ، ويهمس ويوسوس ، ويقدر ويعبر ، والناس من حوله لا يرون إلا ما يرى .

وقد رأى كتاب محمد ، وفيه التخيير بين الإسلام والجزية والقتال . ورأى أن يرد على محمد ، بأن يرسل إليه وفداً يجادله ويحاوره ، ويفحّمه ويغلبه ، فعنده المجادلون المحاورون .

وجاء وفد نصارى نجران ، يلبسون مسوح الرهبان ، ويتختمون بالذهب الرنان ، ويتوشحون بالصلبان ، ودخلوا على محمد ، وألقوا الهدايا بين يديه .

والناس من قديم يرون أن الهدايا ، تستميل القلوب ، وتهديء التائر ، وتشترى الذمم ، وتقلب الحق زوراً وبهتاناً ، وأن الهدايا لها فعلها فى النفوس فكم من حق غطت عليه الهدية فضاع ، وكم من باطل دهنته الهدية ، فلمع وسطع ، وأخفى بريقه الحقوق .

والهدايا تتوه فى الرشوة ، ويختلط الحق بينهما ، ونَدَرَ فى الناس مَنْ يفرق بين هذه وتلك .

وبلقيس اليمنية ، ملكة سبأ ، وهى مجاورة لنجران ، ظنت أنها بهداياها ستشترى ذمة النبى سليمان ، ففهم مغزاها ، وقال : أتمدوننى بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون .

وقد قبل محمد ، هدايا المقوقس عظيم القبط بمصر ، وهدايا قسيس نجران ، فقبول الهدية ، تكريم للمهدى ، وإيناس له ، وقبول لوداده ، ورفع للتكليف بين المتهادين ، وطمانة للوافد ، ومفاتيح للقلوب المغلقة ، ومسح لصدأ الجفوة .

ثم عرض محمد عليهم الإسلام والتوحيد ، وحدثهم أن إنجيل عيسى ، ينادى بأن لا إله إلا الله ، ولا ولد لله ، وأنه لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فلا عزير ابنه ، ولا المسيح ابنه .

فها هو ذا محمد ، قد اقتحم عليهم ميدانهم ، فتكلم فى عيسى نبىهم قبل أن يكلموه ، وفتح لهم باب الحديث فى عيسى ، وجرهم إلى الجدال والمحاورة . فسألوه : وما ذا ترى فى عيسى نبينا ، وما حكمك عليه . وما رأى دينك فيه ؟

فأنزل الله عليه من القرآن : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن . فيكون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين .

فسألوه : أليس عيسى من روح الله ؟ فيكون بذلك ابن الله ، ويكون الله أباه ؟

وحاجُّود ، وحاوِروِد ، وداوِروِد ، وأكثروا جداله ، وأصروا أن عيسى ابن الله .

وأفرغ جهده في إقناعهم ، وطرق أسماهم ، ودحض افتراءهم ، فلما رأى منهم ، انغلاق صدورهم ، وجمود قرائحهم وتنطعهم في مكابرتهم ، لجأ إلى الله ليحكم بينه وبينهم ، فالله ذاته موضع الخلاف بين حقه وضلالهم .
فمن يفصل بين الحق والضلال إلا الله ؟

تعالوا يا نصارى نجران ، ندعو أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، نجتمع في ميدان ، ونضرع إلى الله بِنَفْسٍ طاهر ، وقلب مخلص ، نسأله ونبتهل إليه ، أن يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وأن ينزل لعنته ، ويطرد من رحمته ، مَنْ كان منا أو منكم ، كاذباً مفترياً ، ضالاً مضللاً .

فإن كان دينكم الحق ، وديننا الباطل ، لعننا الله ، وخسف بنا ، ومسحنا قردة وخنازير .

وإن كان ديننا الحق ، ودينكم الباطل ، لعنكم الله ، وخسف بكم ، ومسحكم قردة وخنازير .

إذن هى المباهلة والملاعنة ، والابتهاال إلى الله ، أن ينزل غضبه ولعنته على من يكذب على الله .

وإذن هى مجابهة الله ، ليفصل بين أنبيائه !
وإذن فهو الموت أو الحياة !

وُبُهِت نصارى نجران ، وأسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم بين مطرقة الإيمان ، وسندان الشرك والكفران ، وأن المطرقة بيد الله ، وليست فى يد محمد ، ولا فى يد عيسى .

فاستمهلوا محمداً إلى غده ، حتى يُديروا الرأى ، ويفصلوا فى الأمر ، فإما شجاعة وجراءة ، وصراحة فى الحق ، وإما التيات وانغماس فى أوحال الباطل !
نور وظلام ، وإيمان وكفران ، وجنة ونار ، وتصديق وتكذيب لما قرأنا فى الإنجيل ، قول المسيح : ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، وهذا هو أحمد محمد ، يدعوننا وينذرنا ، ويتوعدنا غضب الله .

وعاد النصارى يقولون : لا نستطيع يا محمد مجابهة الله ، فأعفنا ، واعف عنا ولك علينا الجزية ، ندفعها خاضعين ، ألفى حلة حمراء ، وثلاثين درعاً من حديد . ونعيش إلى جوارك ، وفى ذمتك ، نرعى لك حقك ، وتبقى علينا ديننا ، حتى تستنير بصائرنا ، ويكشف الله عن أبصارها ، ويهديننا سواء السبيل .
ويقول النبى محمد :

والذى نفسى بيده ، لو تباهلوا ، لمُسَخُوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على الشجر .